الحضارة الفرعونية

وتأثرها بالزراعة

للدكتور حسن كمال

لنهر النيل تأثير كبير في تاريخ الحضارة الفرعونية . فضرورة المحافظة على مجراه واستعمال مياهه علمت المصريين هندسة الأنهر وما يتبعها من مساحة الاراضي . ولما تفقدوا السماء وجدوا في حركات نجومها واسطة للاستدلال بها على ميعاد فيضان ذلك النهر العظيم . ومن ثمَّ بدأ اهتمامهم بالفلك واتسعت دراستهم له . ولما كان الفيضان اذا طغى على الاراضي محا معالم الحقول تفنن القوم في ابداع المقاييس ومعرفة المساحة . ولما زاد اهتمامهم بالفلاحة اقنع الفراعنة رعاياهم بأن المحافظة على الحدود والاملاك الشخصية امر مقدس تجب مراعاته ويتحتم احترامه . وهذه العوامل بالذات احدثت تفنن النتاج في بلاد بابل . وبديهي ان كل زوال للفيضان كانت تعقبه مشاحنات ومضاربات ، ومن هنا نشأت ضرورة سن القوانين وتوقيع العقوبات . وهكذا أجبر النيل سكان واديه أن يضعوا لانفسهم أسس الحضارة الاجتماعية والقوانين والنظم السياسية

ثم بدأ القوم يشيدون المعابد الضخمة لدور الحكومة او التعبد فعمدوا الى النيل لينقلوا بواسطته تلك الكتل الضخمة التي شادوا بها آثارهم الباذخة . وبهذه الطريقة وحدها تمكنوا من تشييد الاهرام ونقل الجرانيت من اسوان الى أنحاء القطر مثل منف وتنيس الواقعة بالقرب من البحر الابيض المتوسط . وهكذا أصبح النيل الشريان الرئيسي للتجارة الداخلية . ومن ثمَّ برع قدماء المصريين منذ أقدم العصور في صناعة السفن فابتكروا المجاذيف والقلاع و « القمرات » وغير ذلك من وسائل الراحة في السفر

ومساحة الاراضي وكيل المحاصيل وتوزيعها اضطرتهم لمعرفة اصول الحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة . كذلك فن المعمار أجبرهم على معرفة الهندسة الفراغية . والى النيل أيضاً وتطوراته الطبيعية يرجع الفضل في معرفة المصريين لطريقة قياس الزمن . فقد تنبهوا في القرن الثالث والاربعين قبل الميلاد الى ان السنة الشمسية تتكون من ٣٦٥ يوماً . ويعتبر هذا الاكتشاف الميقاتي واستعماله في الشؤون الدنيوية (وأهمها الزراعة وقتئذ) خطوة كبيرة نحو الرقي وشرفاً عظيماً للوطن الذي اكتشف

فيه . وقسّم المصريون سنتهم الى اثني عشر شهراً وجزّأوا كل شهر ثلاثين يوماً حفظاً للنظام وتسهيلاً للمداولات . وهكذا أثبت سكان وادي النيل ان التوقيت شيء عرفي يصطلح عليه القوم

وللزراعة فضل كبير في ابتكار الكتابة لان هذا الخط مكوّن من عدة رسوم لنباتات وحيوانات وأشخاص وادوات زراعية ومنزلية وحربية وخلافها . فهو والحالة هذه دليل مادي على احوال القوم وقت استعماله من حيث الزراعة والصناعة وهو الموضوع الذي نحن بصدده الآن . لذا وجب التنويه عن تاريخ هذا الخط باختصار . ولا يخفى ان قدماء المصريين استعملوا الكتابة منذ نحو خمسة آلاف سنة . وان كتّاب الاسرة الخامسة الذين أتوا بعد ذلك بألف سنة دوّنوا طائفة كبيرة من أسماء ملوك الوجه البحري وبعض ملوك الوجه القبلي من الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل حكم الاسر كما نسخوا أيضاً عدة نصوص دينية من كتاب الموتى يرجع انها نقلت سابقاً سراراً ومن هذه النصوص استنتجنا معلومات كثيرة عن حياتهم الزراعية وقتئذٍ . والخط الهيروغليفي الذي استعمل في الوجه البحري لاجراءات الملك والحكومة والخزانة لم يكتشف فجأة وقت اعتلاء الملك (مينا) العرش المصري بل كان مستعملاً قبل ذلك بمدة طويلة . ودليلنا على هذا ان الخط الهيراطيقي كان مستعملاً في مبدأ الاسرة الاولى وهو كما لا يخفى اختزال للخط الهيروغليفي . فلا بدّ اذن ان يكون هذا الاخير قد استعمل قبل عهد الاسر بزمن طويل . لكن لم تصل الينا معلومات تاريخية عن مآثر ملوك الوجه البحري والقبلي الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد

﴿ تأصل الزراعة في الديانة المصرية القديمة ﴾ وقد استدلّ من بساطة هيئة الآلهة المصرية وزيها ان المعيشة في عهد الاسر الاولى كانت بسيطة أيضاً . فن هذه الآلهة من يمثّل قابضاً على عصا كالتي يستعملها بدو الصحارى أو على نوع من الغاب (القصب) . وتزين رسومها احياناً بالغاب أو رياش النعام أو قرون الاثنام . ولما اعتبر المصريون حيواناتهم المحيطة بهم رموزاً للآلهة احترموها وثابروا على ذلك حتى في أرقى العصور مدنية وحضارة . وليلاحظ ان هذه الحيوانات لم تعبد كالآلهة الاّ في آخر التاريخ المصري لمّا دخل القطر في دور انحطاطه . فلم تكن عبادة الحيوانات معروفة في العصر الاول (الاسر الاولى) وغاية ما في الامر ان المصريين اعتبروا وقتئذٍ بعض الحيوانات كالنسر رمزاً لمعبوداتهم كالشمس مثلاً . ومن ثمّ اعتبر القوم هذا الحيوان كثيراً واكرموا مثواهُ في المعابد لكنهم لم يعبدوه ولم يقدموا له قرابين كما حدث في الازمنة التالية

ثم ازداد المصري تخيلاً لصورة الحياة الاخروية فتوهم في الجهة الشمالية الشرقية في السماء حقولاً بالغة خُضْراً سماها « حقول يارو » او حقول الخيرات كثيرة العدس قمحها اطول من قمح النيل عميمة الرخاء والطمأنينة والسلام والسكون ينال فيها كل فرد نصيبه مما يقدم لمعبوده في الدنيا من خبز وجعة وملبس علاوة على ما ذكر . ثم استعصبوا الطريق الى حقول الخيرات هذه فتخيلوها يحيط بها الماء . لذلك ابتكروا طرقاً مختلفة للوصول اليها . فكان بعضهم يناجي النسر او الطائر ابي منجل

(إبيس) ليحمله فوق طرف جناحه الى تلك الحقول . وربما البعض الآخر اولاد المعبود (حوريس) الاربعة ليحضروا له قارباً يستعين به على عبور المياه . وتوسل فريق ثالث بالمعبود (رع) ليحمله في سفينته الى تلك الجهة . هكذا تشعبت عقائد المصريين في فهم الآخرة لكنها لم تتجاوز شؤون معيشتهم الزراعية

ومما يدلك على شدة تأثر القوم في عبادتهم بأحوالهم الزراعية انشودة « الشمس » التي وضعها الملك اخناطون والتي كانت تتلى في المعابد للتوسل بها في خلوة المعبود(آتون) — اي قرص الشمس — وسنذكرها هنا للقارىء لاشتمالها على كثير من الاحوال الزراعية . وقد جعل الاثريون لاجزاء هذه الانشودة كما ترى عناوين تتمشى مع معانيها وقابلوها في الوقت نفسه بما جاء في المزمور الرابع والمائة موضحين بذلك الشبه بين الاثنين من حيث الآراء وتسلسل المعاني

النهار والحيوان والنبات

البهائم كلها مستريحة في مراعيها . والاشجار والنباتات جميعها يانعة . والعصافير ترفرف فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهالاً اليك . والاغنام ترقص على ارجلها . والطيور تحلق في الجوّ تتنسم الحياة اذا ما اشرقت عليها

النهار والمياه

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه — هذا البحر الكبير الواسع الاطراف
وكل طريق عمومي يصبح مسلوكاً — هناك دبابات بلا عدد . صغار حيوان مع كبار
لانك ظهرت في الافق . اما السمك فيقفز — هناك تجري السفن . لويانا من هذا
امامك في النهر هكذا تخترق اشعتك البحر الخضم — خلقته ليلعب فيه (مزمور ١٠٤ آية ٢٥ـ٢٦)

خلق الانسان

انت خالق الجنين في امه . أنت خالق نطفة الانسان . انت واهب الحياة للجنين في رحم امه . وملطفه حتى لا يتكدر ويبكي . كيف لا وأنت المربي في الرحم . انت معطي نفس الحياة لكل مخلوقاتك . . . . انت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده امه

خلق الحيوان

انت الذي تهب الحياة للفرخ في البيضة فيصيح . فاذا اتمت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحاً جهده واثباً بقدميه

الخلق عموماً

ما اكثر مخلوقاتك التي نجهلها . انت الاله الاحد . لا شريك لك في الملك . خلقت الارض بارادتك . ولما كنت وحيداً في هذا الكون خلقت الانسان والحيوان الكبير والصغير والمخلوقات التي تدب على الارض او تطير بأجنحتها انت الذي احللت كل انسان في سورية والنوبة ومصر في موضعه وأنعمت عليه بحاجاته فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش ايامه المعدودة . لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم فسبحانك من ميز لخلقك

ما اعظم اعمالك يارب . كلها بحكمة صنعت . ملآنة الارض من غناك (مزمور ١٠٤ آية ٢٤)

ري الاراضي

انت خالق النيل في الدار الآخرة . انت اوجدته برغبتك فيه لتحافظ على حياة الاهالي . انت سيد الجميع لانهم ضعاف . انت سيد كل امرة لانك تشرق لاجلها . انت شمس النهار المهيب في الاراضي السحيقة كلها والواهب لها الحياة . خلقت لهم نيلاً في السماء ليسقط عليهم ماؤه فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروي غيطانهم بين مدنهم . ما ابدع اعمالك ايها السيد الازلي ! فنيل السماء مخصص للغرباء وللدواب من كل البلاد . والنيل الذي يأتي مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة . اسمك تغذي الجنان . فاذا ما اشرقت اينعت وأنبتت بتأثيرك

الفصول

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك . فالشتاء يعطيهم البرودة . والصيف يهبهم الحرارة انت الذي رفعت السماء عالياً لتنظر ما خلقت في وحدتك شارقاً حيًّا كاتون ساطعاً متلألئاً ثم راجعاً ثانية الى حيث ابتدأت

* * *

وتغلغلت الزراعة في الديانة المصرية القديمة حتى اكتسحتها تقريباً فأضحى القوم يمثلون النعيم الاخروي او الجنة بالنعيم الزراعي او الفلاحة وكثر هذا التمثيل في المقابر والادراج البردية بشتى الصور ومختلف العبارات . وسنقرب للقارىء مثلاً درج الكاهن (آني) فقد ورد في اللوحة الخامسة والثلاثين رسم الآخرة ويتكون من اربعة اسطر السطر الاول وفيه الكاهن (آني) يقدم القرابين لمعبود له رأس الارنب وآخر رأس الثعبان وثالث له رأس الثور وخلفه يلاحظ المعبود (تحوت) قابضاً على اللوح والقلم . بعد ذلك يرى (آني) راكباً سفينة صغيرة يدفعها الى الامام بواسطة مجداف . ثم السطر الثاني فيه (آني) وهو يخاطب الطير المعروف بالباشق والموضوع امامه مائدة للقرابين ويشاهد بالقرب من ذلك رسمُ لشخص مقدس وثلاث بحيرات وتقوش هذه ترجمتها : « المعيشة في سلام في حقل السلام واستنشاق الهواء في الانوف » . بعد ذلك يشاهد الكاهن (آني)

يحمد القمح ثم يدرسه بواسطة ثيران ثم يرى يبجّل الطائر المقدس (بنّو) . وبالقرب من ذلك تشاهد كومة من القمح الاحمر واخرى من القمح الابيض وثلاث بحيرات وغير ذلك

بعد ذلك يأتي السطر الثالث من الرسم ويتلخص في طريقة الحرث بالقرب من غدير ماء لايخوي سمكاً ولا ثعابين . ثم السطر الرابع وتتلخص رسومه في مولد المعبود وفي جزيرة صغيرة عليها بعض دوجات سلم ثم محل يقال (خوس) ينبت فيه القمح الى ان يبلغ طوله ثلاثة اذرع ثم مناظر لسفن وانهار وغير ذلك . (راجع ترجمة كتاب الموتى للاستاذ بدج ص ٣٢٢)

وتأثرت الفنون الجميلة عند قدماء المصريين بالزراعة بشكل واضح جلي . ويشاهد ذلك على الاخص في النقوش الملوّنة التي استعملت كثيراً منذ عهد المملكة القديمة . من ذلك رسم سرب الاوز بمقبرة بيدوم تتجسم فيه براعة المصور المتني وطول باعه . فقد اتقن الرسّام انعطاف رأس هذا الطائر وبطء حركته وانثناء عنقه وقت التقاطه دود الارض بشكل يقرب جداً من الطبيعة . ولاشك في ان مثل هذا الرسم يشهد لصانعه بالقدرة وعظم الاعتماد على النفس وكثرة التمرن في هذا الفن الجميل

اما الاعمدة فصنعت على اشكال كثيرة منها ما يشابه النخيل وآخر يمثل طاقة البردي وثالث على شكل طاقة اللوطس . وساحة امنحوتب الثالث بمعبد الاقصر تحوي عموداً على شكل باقات براعم البردي وعمد صحن المعبد المذكور مصنوعة على شكل سيقان البردي المنتهية بزهرته اليانعة . وساحة الكرنك العظمى تحوي عموداً على هيئة زهرة البردي المفتوحة ايضاً

وهناك امثلة كثيرة اخرى للفنون الجميلة وعلاقتها بالزراعة . فمنذ الامر الاولى يجد الباحث ارجلاً لكراسي مصنوعة من العاج المنحوت على شكل ارجل الحيوان . ثم صاغ القوم اكاليلهم على شكل الازهار الزاهية اليانعة كما هو مشاهد في اكاليل دهشور الذهبية التي بدار تحف القاهرة

وفوق هذا وذاك فقد كانت حكومة القطر مصبوغة دائماً بالصبغة الزراعية من حيث النبات او الحيوان . فملوك مصر كانوا يلقبون منذ اقدم الاسر بلقب « حوريس » نسبة الى ما ورثوه عن هذا المعبود في عرش مصر . وقد رسم الباز (رمز حوريس) فوق الآثار الملكية فوق شكل مستطيل يمثل باب القبر الوهمي (الذي تخرج وتدخل منهُ الروح) وبداخله اسم الملك الرسمي . اما اسم الملك الشخصي فيكتب مسبوقاً برسم الزنبور (رمز الوجه البحري) وفرع البردي (رمز الوجه القبلي) اشارة الى ان هذين القطرين قد خضعا له . ويصحب هذه الرموز غالباً رمزان آخران هما العقاب (وهو رمز نخبت معبودة الكاب حامية الوجه القبلي) والصل (رمز بوتو معبودة مدينة بوتو حامية الوجه البحري) . ويشاهد الباز على رؤوس التماثيل للملوك تلك الازمنة مرفرفاً بجناحيه ليحميهم من الاذى . ثم اخذت الملوك بمرور الزمن تضع فوق جباههم صلاً (معبود المملكة البحرية) مشيرين بذلك الى بسط نفوذهم على الدلتا